العود سلطان آلات الموسيقى وجالب المسرات

صناعة الاعواد في لبنان: حرفة موجعة... وعظيمة!

العود سيد الطرب الاصيل باللغة اللحنية التي ينام عليها الشرق ويصحو. آلة حميمة تحتاج الى الكثير من الحنان لتشدو وتجيد، لذلك يحتضنها الى قلبه العازف عليها، ولا يملّ... ولا يملّ العشاق.

ماذا يقول القلة الباقون الذين على ايديهم وتعبهم تولد الاعواد في لبنان؟ اين اصبحت صناعة العود وما مستقبلها؟

جاء في معجم «جروف» للآلات الموسيقية ان العود القصير العنق وجد لاول مرة في آسيا، واقدم نماذجه، وهي نادرة، يرجع تاريخ ظهورها الى بدايات القرون الميلادية الاولى.

ويبدو ان الظهور الاول لهذه الآلة حصل في الهند، ثم انتقلت الى بلاد فارس ولم تلبث ان انتشرت لاحقاً باتجاه الشرق حتى الصين واليابان، وباتجاه الغرب حتى وصلت الى العالم العربي، ومنه انتقلت الى اوروبا.

ولئن كان العرب اهتموا بالموسيقى فتناولها من بينهم علماء كبار مثل الكندي وابن سينا والفارابي، فان الكتابات العربية القديمة في هذا الامر لم تقتصر على الموسيقى بمفردها، بل تعدتها الى بعض الآلات الموسيقية التي كان في طليعتها العود الذي اعتبره معظم القدماء «سيد» آلات الطرب، فأكثروا وصفه واسهبوا في امتداحه واحترام صانعيه والعازفين عليه.

واذاً كان هذا شأن الاجداد بخصوص هذه الآلة التي طالما اختزنت في عزفها وطربيتها عبق الشرق وسحره العاطفي، فماذا عن العود اليوم، وما شأن الاحفاد – معاصرينا – معه، صناعة وتفنناً، واين بلغ «القلة الصامدون» من الحرفيين اللبنانيين الضالعين في صنع الاعواد اليوم...؟

صناعة العود و«قانون الصمت»!

الواقع ان فن صناعة آلة العود لم يتطور كثيراً، في لبنان ولا في سائر المشرق العربي، وذلك لاسباب عدة، منها عدم وجود دراسات متخصصة بشكل علمي وموضوعي، وعدم وجود مؤسسات تعنى بآلة العود وترعى صناعتها، هذا فضلاً عن «التزام قانون الصمت والسرية» من قبل كل صانع عود بحيث يعتبر نفسه اذا تحدث عن صناعته، وكأنه كشف اسرار المهنة واطلقها بين الناس... هذا اضافة الى طغيان الغاية التجارية الربحية.

نزيه غضبان: في تاريخ العود وصناعته

الظاهر ان صناعة العود في لبنان باتت مهددة بالانقراض. فالعاملون فيها قلة وقد التقينا البعض منهم علنا نستطيع القاء الضوء على هذه الحرفة... بل «مجموعة الحرف» المتداخلة. فالحرفي صانع العود ينبغي ان يكون عارفاً بالرسم والنجارة والنحت، وبالموسيقى ايضاً، على ان تكون معرفته بكل ذلك متوسطة على الاقل.

من هؤلاء القلة الذين التقتهم «الجيش»، السيد نزيه غضبان من رأس بعلبك، وهو

باحث في هذا الميدان كما انه عازف وحرفي، قال:

كثرت الدراسات التاريخية والوصفية في لبنان والعالم العربي لآلة العود منذ وجودها، مروراً بحقبات تطورها حتى ايامنا هذه، اذ وصفه القدامى بـ«سلطان الآلات وجالب المسرات». وترى بعض هذه الدراسات ان مخترع العود هو «لامك» من ابناء الجيل السادس بعد آدم. وقد جاء في «تاريخ الكامل» للمبرد ان اول صانع عود هو النبي «نوح». اما الاستاذ «فارمر» فيرى ان العود انتشر بين العرب انطلاقاً من الحيرة. ويذكر بعض المؤرخين بأن آلة العود ظهرت عند قدماء المصريين منذ اكثر من ٣٥٠٠ سنة.

ويتابع السيد غضبان قائلاً: والى جانب الدراسات التاريخية والوصفية تجدر الاشارة الى وجود مؤلفات لبنانية عديدة تتناول طرق تدريس العزف على هذه الآلة. وقد اغفل الباحثون الجانب التقني لهذه الآلة حتى انه من العسير ان تجد دراسة واحدة تضيء على الامكانات الصوتية لهذه الآلة او على كيفية صناعتها كما هو الحال بالنسبة الى آلتي الغيتار او الكمان او غيرهما من الآلات الغربية. فالامر متروك لكل مجتهد في هذا المجال. لذلك ترى اعواداً متعددة الانواع والاشكال والاحجام، مختلفة المقاسات، غير منضبطة في قوالب محددة مما ينعكس سلباً على تطور صناعة العود وتقدمها، وبالتالي على تطور الموسيقى العربية بشكل عام لارتباطها بالعود.

مراحل الصناعة

وعن مراحل صناعة العود قال السيد غضبان:

المرحلة الاولى تقضي بصناعة قالب العود الذي سيجري العمل عليه، وقياسه يكون وفق ما يختاره الصانع.

ويبدأ عملية صف الاضلاع على القالب لتتشكل في النهاية ما نسميها «طاسة العود».

وتترك الطاسة مدة شهر او شهرين كي تجف تماماً ثم تحفّ بعدها وتنظف وتنعّم.

ومن ثم يبدأ العمل بصدر العود فالزند ثم بالمفاتيح (وهذه تتوفر جاهزة). بعد ذلك تلي مرحلة دهان العود. هكذا تكون صناعته قد اكتملت. انما ينبغي العزف على العود الجديد الذي يظل في عهدة الصانع وذلك لمدة شهر او شهرين، لكي يطمئن الى جودته وعدم وجود اي عيب فيه، كما لمراقبة «التغيرات» التي قد تطرأ ايضاً عليه خلال هذه المدة.

الادوات والمواد الاولية: شبه بدائية وتشمل ادوات النجارة الى ادوات خاصة يستعملها الصانع لتسهيل عمله، منها الرابوخ (او فارة النجارة)، الجنبية (او الغالول للحفر)، ازاميل متعددة الانواع، وسكاكين ومناشير.

ومن الادوات الخاصة: «حفافة» للتنعيم، وجهاز لكشف الرطوبة في الخشب، وآلة لقياس صلابة الخشب.

اما لجهة المواد المستعملة فهي:

– اولاً: الخشب الذي يجري استعماله لصناعة العود بعد مرور خمس الى سبع سنوات على قطعة او على شرائة، حتى يكون قد جفّ بشكل نهائي واصبح خالياً من الرطوبة.

وهذه الطريقة معتمدة في معظم بلدان العالم. وللعود «مزاج» في اختيار انواع الخشب الداخلة في صنع مختلف اجزائه: خشب الجوز مثلاً لصناعة الطاسة، وهو يتناسب مع الطبقة الصوتية في آلة العود. وخشب الشوح لصدر الآلة، والابنوس لزند العود (كي لا يتأثر بعزف الاصابع على مدى السنين).

– ثانياً: مواد اخرى لتجميع الخشب وهي الغراء والاصبغة.

العود وصانعه

عن ابرز ميزات العود يقول السيد غضبان انها ثلاث هي:

١– دقة الصناعة وصلاحها.

٢– جمال الشكل ورونقه.

٣– الصوت (الموسيقى) الصحيح والعذب.

اما المواصفات الاساسية برأيه لصانع العود فأبرزها:

– ان يكون موسيقياً... اذ لا يمكنه معرفة مدى جودة الآلة ما لم يكن عارفاً بالموسيقى والعزف.

– ان يكون ماهراً بحرفة النجارة، اذ اغلب عمله سيكون في هذا الميدان.

– ان يكون نحاتاً اذ عليه ان يعرف النسب التي ستعطي آلة جميلة وكيفية نحتها، باعتبار ان العود يتألف من ٦٢ قطعة، وعلى الصانع معرفة كيفية صنعها وتركيبها كما ينبغي.

– ان يكون رساماً مدركاً اصول مزج

نزيه غضبان

الالوان «الموزاييك».

– ان يكون على مستوى ثقافي جيد، موسيقياً واكاديمياً، بحيث يكون بمقدوره الاطلاع على الآلات الموسيقية الاخرى وتطوير عمله في صناعة العود، ومتابعة الجديد في علوم الموسيقى والصوت والفيزياء السمعية.

«تجنبوا ما يلي»

اما المساوئ التي يجب ان يتجنبها صانعو الاعواد فأهمها:

١– عدم «نسخ» آلة العود الجديدة عن اخرى مصنوعة بل السعي الى ايجاد الافضل والاحسن. وهذا يعني الاجتهاد والابتكار والاجادة.

٢– الاطلاع على الكتب التي تتناول الموسيقى والعود لجهة تدريسه وصناعته، مما ينمي المهارات النظرية والمعارف.

دراسة تحت الطبع

وبالمناسبة، يقول السيد نزيه غضبان: انا في صدد طبع دراسة علمية تحليلية مقارنة لآلة العود في مختلف البلدان العربية، تكشف الجانب التقني الغامض الذي أغفل عن قصد او غير قصد في الدراسات التاريخية والتعليمية لهذه الآلة.

وابين في هذه الدراسة الشروط الضرورية لصناعة العود الجيد، اضافة الى كيفية اختياره وطرق المحافظة عليه وتصليحه، واشكاله المختلفة. وقد نلت تشجيعاً من وزارة الثقافة والتعليم العالي، مشكورة، على عملي.

اما بخصوص الجديد في تطوير آلة العود فقال: اننا نسعى دائماً لتطوير هذه الآلة وقد قمنا بصنع نماذج جديدة غير مألوفة لآلة العود (كالعود الذي له زند طويل ممتد الى صدر الآلة)، مما يسهل العزف وامكانات التعبير الموسيقي كي تواكب المؤلفات الموسيقية الجديدة.

كذلك احتفظ بارشيف لكل آلة أدوّن فيه الملاحظات الخاصة بهذه الآلة والتغييرات التي طرأت عليها واسم صاحبها وذلك على مدى عشرين عاماً من العمل المتواصل الدؤوب، وهذا الارشيف هو بمثابة تجربة كانت لي عوناً في دراستي التي اقوم باعدادها.

ويعتبر السيد غضبان ان الاعواد التي يصنعها تتمتع بمواصفات خاصة (آلية الزند – الصوت – الصناعة – الشكل – اللون – الوزن...) وتستند الى الدراسة التحليلية التي قام بها، لذا فهي برأيه تتمتع بتقديرات معظم الاساتذة والفنانين في لبنان وخارجه.

وقد اتخذ قلعة بعلبك شعاراً لاعواده لما فيها من براعة ودقة في الصنع وقوة في البناء وتوازن وانسجام.

وختم حديثه عن كيفية حفظ آلة العود بالقول: حفظ آلة العود عملية هامة يجب ان يعرفها العازف كي لا يخسر آلته. فعليه بعد الانتهاء من العزف ان يضع العود في مكان غير رطب وبعيداً عن اشعة الشمس، كما عليه اخضاع آلة العود لصيانة دورية وذلك لاستدراك اي عطل، واصلاح الاعطال الصغيرة والاعتماد على خبراء مشهود لهم بالتصليح، وعدم تصليح بعض الاعواد التي تكون اساساً «اعواداً تجارية».